

مقدمة في التفكير العقلاني

أ.د. مضر خليل عمر

يمثل هذا المقال بعض ما ورد في الفصل الاول من دورة اون لاين عن التفكير العقلاني Critical Thinking . ولم تتم ترجمتها حرفيا ، بل بتصرف . وبعد استعراض موضوعات الدورة وتبويبها في سبع فصول ، وتوضيح سياقات الاختبارات الفرعية وأهمية المشاركة في طرح الاسئلة و الاجابة عنها ، وتقويم اجابات المشاركين الاخرين في الدورة وكتابة مقالات معينة، تختتم الدورة باختبار عام شامل ، جاءت هذه المقدمة .

قال Tao Te Ching قبل الفين وخمسمائة سنة ((قد يكون معلمك على خطأ ، تعلم التفكير بنفسك)) ، ولعلها اساس التفكير العقلاني وقد كانت هذه من شعارات المدارس الانكليزية خلال النصف الاول من القرن الماضي . الفكرة انه على الرغم من الاعتقاد بان التعليل Reasoning يقودنا في طريق الحياة ، الا اننا لا نستخدم ادمغتنا بكثرة في التعليل .

فما الذي يميزنا كبشر عن القردة ؟ هل هو التفكير ؟ وهل يفكر الانسان فعلا ؟ فما تقديرك لنسبة قراراتك اليومية المستندة على التعليل ؟ (التبرير المنطقي قبيل اتخاذ القرار او القيام بالفعل) وكم نسبة ردة الافعال فيها ؟ او كانت القرارات والافعال نتيجة الاعتياد عليها ؟ او جراء التحيز المسبق ؟ فهل قراراتك العقلانية تقل عن 50% من مجموع قراراتك ؟ اكثر من 50% ؟ 80% ؟ 25% ؟ حدد ذلك مع نفسك ، و ناقش النتيجة بعد الانتهاء من الدورة .

لماذا نستخدم التعليل ؟ للاجابة عن قرارات اتخذناها مسبقا ؟ او لتبرير الايمان بمعتقدات معينة ؟ فنحن نستخدم ادمغتنا لفرض شيء ما ، او لاستيعاب موضوع محدد ، او الاعتقاد في شيء معين . فنحن نبرر سلوكنا فقط . فهل تعتمد التعليل عند اختيارك الزوجة ، الشريك في العمل ، الصديق او الصديقة ؟ هل قمت بكتابة قائمة بالايجابيات والسلبيات لخيراتك ؟ أو تحليل الكلفة والمنفعة لهذه الخيارات ؟ هل سألت نفسك عن مدى تناسب الشخص الاخر لك ؟ ولنفكر بشيء آخر اكثر عملية ، هل فكرت في طريقة ربط شريط حذائك ؟ الفكرة انه في الاشياء الصغيرة التي نمارسها يوميا ، مثل ربط شريط الحذاء ، يمكن ان تنجز بطريقة اسهل وافضل عند التفكير بها . يعني هذا اننا لا نستخدم ادمغتنا لتقود سلوكياتنا اليومية وتطورها ، بل يحدث العكس . وكذا الامر مع المعتقدات والافكار والمبادئ ، فنحن لا نفكر في المعتقد وسبب اختياره الا لاحقا .

لنقوم بتحليل معتقد مهم وسائد ، الديمقراطية ، فهي نظام اخلاقي فاعل ، هل فكرت فيها فعلا ؟ هل آمنت بها بعد تحليل مختلف النظم الاجتماعية وقارنتها مع بعضها البعض فوجدت ان الديمقراطية هي الافضل رغم محدوداتها ؟ ام ان المدرسة ، والصحافة والافلام الامريكية اقنعتك بان اتباع الاغلبية هو اخلاقي ؟ هل تساءلت مع نفسك عن فاعلية النظام الديمقراطي ودوراته الانتخابية ؟ (تغير الحكومة كل اربع سنوات) .

ماذا عن معتقد اكثر بساطة ، مثل ان سبب اكل الفاكهة هو غناها بالفيتامينات ، فجميعنا يعرف ان اكل تفاحة يوميا يقيك بعيدا عن الطبيب ، هل تحققت من ذلك ؟ هل دقت المعلومات عن طريق الانترنت مثلا ؟ هل تعرف ما هي هذه الفيتامينات ؟ وما دورها في جسمك ؟ حاول معرفة ذلك بالبحث عن الفيتامينات ، وستجد ان الكبد يعطيها ايضا ، ولهذا يمكن القول بان (بعض الكبد يوميا يبعد عنك الطبيب) . اعتقد اننا لا نستخدم التعليل كما يفترض ، وهناك الكثير من الدراسات تؤكد هذا.

فنحن جميعا نفترض ان القضاة اشخاصا عقلانيون في قراراتهم (اتخاذ قرارات مبررة). وقد قام ثلاث باحثين بدراسة هذه الحالة ، معتمدين حالات مساجين اطلق سراحهم بعد قضاء مدة

من المحكومية . درست الف حالة قرار حكم فيها ثمانية قضاة خلال عشرة اشهر ، وتوصلت الدراسة الى العوامل التي اثرت على قرارات الحكام . فهل تعتقد ان الحكام قد استخدموا التعليل؟ فما هي العوامل التي اثرت على قراراتهم : كثافة الجريمة ؟ كلا لم تؤثر علاقة ايجابية قوية . الوقت الذي قضاه المحكوم في السجن ؟ كلا ، عمر السجين ، كلا مرة اخرى . العامل الاكثر اهمية هو الوقت الذي يفصل بين اتخاذ القرار و فترة الاستراحة لتناول وجبة خفيفة . هل تصدق ذلك ؟

إن نسبة القرار الايجابي (الصالح اطلاق سراح السجين) تبدأ صباحا وبنسبة عالية تصل الى 65% من مجموع القرارات في تلك الجلسة ، ولكنها تبدأ بالتناقص سريعا لتصل الى الصفر قبيل فترة الاستراحة بقليل . وبعد استراحة امدها 20 دقيقة يعود القضاة فترتفع النسبة الى 65% مرة اخرى وبعدها تتناقص حتى تصل الى 10% قبل ساعة من فترة الغداء . وبمعجزة ترتفع النسبة مرة ثانية الى 65% بعد الغداء من مجموع القضايا المناقشة في تلك الجلسة ، ومن ثم تتناقص قبل انتهاء ساعات العمل . النتيجة هذه حيرت الرأي العام و المجتمع الاكاديمي ، وحتى القضاة انفسهم عندما اعلموها بها ، فهل تتأثر قرارات المحكمة بعوامل ليس لها صلة بالقضايا او اي سبب آخر ؟

وفي دراسة اخرى تباينت الاجابات حول تجريم المتهم طبقا لصياغة السؤال . النتيجة التي يمكن الخروج بها هي ان الناس لا تستخدم التعليل في الغالب ، فالقرارات تتخذ كما اعتاد الفرد عليها (كما يفعل الآخرون ، لذا لا بد وان تكون صحيحة) . فالتفكير العقلاني (التعليل الجيد) سمة انسانية جوهرية وهو نتيجة حتمية حيثما يكون التعليم جيدا . فالتفكير العقلاني يعتمد على الميل الى التحليل و القدرة عليه ، وهذا يمكن تحسينه وتطويره باعتماد منحى تركيبي في التفكير . فالتعليم مفتاح لكل شيء ، وكلما كان التعليم ايجابيا ، استخدم العقل في التعليل ، جاءت النتائج ايجابية ، كبيرة وعميقة ، وسببا في التقدم والتطور وبناء الحضارة الانسانية .

تعليق ،

ميز الخالق جل وعلی ، البشر بالقدرة على التفكير ، والتكيف مع البيئات وتبايناتها وما يطرأ عليها من تغييرات وكوارث ، ولهذا السبب لم ينقرض الانسان رغم زوال العديد من الكائنات الاخرى لعدم قدرتها على التعايش مع المستجدات . وعملية التكيف هذه ناتجة عن القدرة على التفكير و تعديل الاوضاع الذاتية و تقبل التغييرات في البيئة و معرفة كيفية التعامل معها وتحويلها لصالح الانسان . فلولا العقل المفكر لهلك الانسان وانقرض منذ امد بعيد جدا .

والاسئلة المطروحة للنقاش ، هل نحسن كبشر استخدام نعمة العقل في حياتنا اليومية ؟ هل نتعلم في المدارس كيف ننمي هذه النعمة ونطور قدراتها على التفكير والابداع ؟ ما هي مجالات استخدام العقل وقدراته التي هو مؤهل لها ؟ وهل نستثمر هذه القدرات وننتفع منها بالكامل ؟ ما هي النسبة المئوية الحقيقية المستثمرة فعليا لكل استخدام او مجال من المجالات التي يعد العقل البشري مؤهل لها ؟ ويفترض ان تكون الاجابة بدون مكابرة وبدون غبن ايضا ، الاجابة مع الذات لصالح الذات و تحسين وضعه والارتقاء به .

ومن المؤلم والمخزي ، في الوقت نفسه ، أن المدرسة علمتنا على الحفظ البيغوي و حالت دون أن نتعلم التفكير و المحاجة العلمية (الموضوعية) . كملتها الاوضاع السياسية فالرأي الآخر يعني العداة والخروج على (الملة) ، وان التنفيذ الحرفي للاوامر والتوجيهات بدون المناقشة واجب وطني تقابله الخيانة عند عدم التنفيذ او الخروج عن حرفيته . وجاءت الاغاني والقصائد (العصماء – في المديح) لتجد خلايا الدماغ مهينة بالكامل لهذا النوع من الاستثمار .

لقد صممت الحاسبة (الكومبيوتر) كنظير لدماع الانسان وقدراته على معالجة الاشياء (البيانات ، الاحداث ، الخ) . ويزعل بشدة المتخصصون بالحاسبة وبرمجتها عند ملاحظة ان الاستخدام السائد لها هو الكتابة (معالجة النصوص) و سماع الاغاني ومشاهدة الافلام .

فالحاسبة لم تصنع لهذا أصلا ، إنها صممت لمعالجات Processes أكثر تعقيدا وأكثر فائدة . صنعت لتبرمج العمليات المطلوب القيام بها لتحقيق أهدافا محددة يصعب تنفيذها بدون برمجة ومنهجية في التفكير والتنفيذ . ويشد غضب صانعو الحاسبات عندما توصف الحاسبة ب (الخدم الغبي) فهم يريدونها تساعد الانسان وتخدمه بذكاء و تفكير ذاتي Smart . يريدونها تكمل ما فات الانسان عند تفكيره في معالجة موضوع ما نتيجة مشاغل الحياة وتعقدها . يريدونها (انسان عاقل) يكمل ويعين الانسان في حياته اليومية و مجالات عمله المهنية . يريدونها (دماغ) اضافي للانسان يستخدم عند الحاجة . فهي ليست بديلا عن دماغه ، وليست اداة خزن وحفظ لاشياء يمكن خزنها في اجهزة اخرى غير الحاسبة ، انها دماغ انسان آلي . فماذا حدث لدماغ الانسان ؟

انعكست حالة غياب التفكير الموضوعي على حياتنا الشخصية ، فالعادات وردود الافعال وتقليد الاخرين حكمت سلوكياتنا ، التي بررت لاحقا باسباب ليست ذات صلة حقيقية . وحتى طلبة الدكتوراه عندما توجه لهم اسئلة تتعلق بسبب اكمال الدراسة العليا ، وعن اختيار الموضوع ((الذي سيحدد الاختصاص الدقيق والسيرة العلمية المستقبلية)) لهم نجدهم في حيرة و لا ينظرون ابعد من ارنبة الانف .

والادهى والامر ، أن هذا صحيح بدرجة كبيرة أيضا على السياسيين و الحكام والمسؤولين في الدولة ، فليس هناك استراتيج ، وتنعدم الرؤية لمستقبل واعد للوطن ، فالمصالح الشخصية والفئوية غلقت ابواب العقل و سدت نوافذه ، خوفا من تأثير الاتجاهات والتيارات الاخرى . فالتفكير منحصر ومنحسر في المطلوب تنفيذه حرفيا ، وعدها يعد كفرا والحادا يستوجب اكثر من الجلد والضرب المبرح .

الديمقراطية تطلق العقل من عقاله ، والخوف من جموحه يدعو وبشدة الى تحجيم الممارسات (الديمقراطية) ، وذلك لانها تؤدي الى تفعيل نشاطات عقلية كانت متشرقة وفي سبات طويل الادم ، واحتمالات الممارسات غير السوية و ارد جدا جدا . لذا الديمقراطية نحن غير مؤهلين لها، في الوقت الراهن على الاقل ، لأننا لم نتعود التفكير المنطقي ، ولم نمارس الحوار الموضوعي لا في المدرسة ولا في البيت ولا في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، وصعب علينا تقبل الرأي الآخر . لقد أفقدونا سمة الانسان الاساسية والمميزة له عن سائر الخلق لابتعادنا عن التفكير العقلاني ، بدء من الدراسة الاساسية حتى نهاية السلم التعليمي ، وفي الحياة المهنية والسياسية . فلا نستغرب مما يحدث على الساحة ، فقد استغل وضعنا هذا من قبل دهاة السياسة و ذئاب المصالح وضباع الجيف والسحت الحرام من المنافقين و المتلونين .